علمان ضالان

الكيمياء قديماً والتحليل النفسى حديثاً

قد يقال وهل يجوز على العلم الضلال ؟ وهل يسمى الضلال علماً وحد العلم الهداية إلى الحق . الواقع أن لدينا تاريخ أحد هذين العلمين كاملا منذ أول نشأته و إبان ازدهاره وانتشار المؤمنين به إلى حين موته وانصراف الناس كافة عنه . ومع أن هذا العلم عاش نحو ألف عام فانه لا يمارى أحد اليوم أنه كان ضلالا كله من أوله إلى آخره . أما العلم الآخر وهو التحليل النفسى فهو علم حديث جدا وله أنصار عديدون ، وعلماؤه لايشكون فى صحة الأسس التى قام عليها وفى صواب نظرياته . ودليلهم على ذلك مجموعة كبيرة من النتائج وصلوا إليها وحققوا بها الشفاء لكثيرين من المرضى . وليس من السهل أن نتبين اليوم أضلال هذا العلم أم هو علم حق ، فالزمن وحده قادر على إثبات ذلك .

على أنه يخيل إلىّ أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذين العلمين ، وأن العلم الحديث سيصيبه ما أصاب أخاه من قبل ، ولن يمر وقت طويل حتى ينصرف الناس عنه ، ولن يعصمه من ذلك إيمان علمائه به ؛ فقد آمن علماء الكيمياء القديمة بها إيماناً تاما وساقوا الأدلة العديدة على صحتها ، ولم يكن يخطر ببالهم أن الزمن سيثبت أن علمهم لم يكن له أى نصيب من الحق .

هذه الدعوى الجريئة التى أتقدم بها تقوم على اعتبارات عدة ، أهمها عندى المطابقة التامة بين العلمين من حيث أن كليهما نتيجة لاستعمال طريقة بحث معينة فى مجال لا تصلح له ولا يصلح لها ، وأن كلا العلمين لا يخرج عن أن يكون مجموعة أخيلة وتصورات اخترعت اختراعاً لتفسير وقائع ينقصنا كل ما يجب أن نعلمه عن طبيعتها ، وكلاهما لا يصف الواقع و إنما يصوره ؛ ثم إن الغموض من أخص صفاتهما مما جعلهما من الصعوبة بمكان ، على حين أن العلم الحق يكون دائماً واضحاً صريحاً .

استعمل الكيميائيون القدماء طريقة الاستنتاج والمنطق فى فهم طبائع الأشياء وسنن الكون، وهى لا تصلح لهذ النوع من البحث، إنما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبى ولم تكن قد استكشفت حينذاك . ولذلك حاول علماء التحليل النفسى أن يطبقوا المنطق التحليلى الحديث فى فهم معميات النفس، وهو أيضاً لا يصلح لذلك، بل لا بد لفهم طبيعة النفس من طريقة بحث أخرى غير المنطق التحليلى والتجارب، وهو ما لم توفق له بعد . فعلم التحليل النفسى محاولة لفهم شئ بطريقة بحث لا تجدى . مثله فى ذلك مثل الكيمياء القديمة سواء بسواء .

وتفصيل ذلك فيما يتعلق بالكيمياء أنها نشأت بعد أن أتقن الفلاسفة طريقة الاستنتاج والمنطق إتقاناً حسبوه أماناً من كل خطأ وغرهم ما وفقوا له من النجاح فى بحث العلوم النظرية المحضة، فخيل إليهم أنه ما دامت قواعد المنطق سليمة فكل بحث لا بد يؤدى إلى الحق . ولما اشتد ساعدهم حاولوا أن يتبينوا حقيقة الكون بهذه الوسيلة، ولم يكونوا ليعلموا أن هذه الطريقة لا يمكن أن تؤدى إلى غايتهم التى ينشدونها .

وإذا حاولنا أن نتبين القواعد التى بنوا عليها علمهم العجيب وجدنا أن الضلال لم يكن نتيجة خطأ فى المنطق، وإنما كان نتيجة لتطبيق المنطق البحت على مالا يصلح له . وأبسط نظرياته فى طبائع الأشياء يمكن تلخيصها فيما يأتى : عناصر الكون أربعة : نار وهواء وأرض وماء . وخواص الأشياء أربعة : اليبس والرطوبة والحرارة والبرودة ، والأجسام عبارة عن جوهر وخاصتين ؛ فالنار حرارة ويبوسة وجوهر ، والهواء حرارة ورطوبة وجوهر ، والماء رطوبة و برودة وجوهر ، والأرض برودة ويبوسة وجوهر ، والجوهر واحد فى الأشياء كلها ، إنما تتنوع الأشياء بتنوع صفاتها . ثم فرضوا أن الجسم الرطب من الخارج لا بد أن يكون يابساً من الداخل (وإلا اختل توازنه) ، والجسم الحار من الخارج بارد من الداخل . ويقول جابر بن حيان بعد شرح ذلك إنك إذا بلغت بحسن التدبير إلى خلاص البرودة والرطوبة والحرارة واليبوسة مفردات كان مقامها مقام الحرارة الأولى (أى عند بدء الخليقة) وأمكن بذلك أن تتعلق هذه المفردات بالجوهر ، ويمكنك أن تركب بعدئذ ما تشاء . ويقول جابر (فيما ينسب إليه) : إذا أردت أن تجعل من الفضة وهى باردة يابسة من الخارج ذهباً وهو حار رطب من الخارج ، فأبطن برودتها فان حرارتها (الداخلية) تظهر ثم

أبطن بعد ذلك اليبس فان الرطوبة تظهر ، وتصبح الفضة بعد أن كانت يابسة باردة رطبة حارة وبذلك تصير ذهباً ، وهى عملية عقلية بسيطة لا غبار عليها من الناحية المنطقية و إن لم يكن لها أصل من الواقع البتة .

ضل هذا العلم طريق الصواب لا لخطأ فى الاستنتاج ، ولكن لما قام عليه من فروض حسبوها بديهيات . فعلماؤه يجمعون بين فكر ناضج وعقلية راقية وعلم ضئيل جدا . وعدم التناسب بين فكرهم ومعلوماتهم هو السبب فى ما عرض للصنعة من تشويه ، فخطؤهم الأول أنه ليس فى الأجسام الطبيعية ما كانوا يبحثون عنه ، وخطؤهم الثانى عدم التناسب بين فكرهم وعلمهم ، والخطأ الثالث تجاهلهم كل ما يحد من شطط الفكر حين يطلق من كل قيد فالوضوح والدقة فى التعبير والشرح الوافى كل أولئك وسائل تجعل الفكر يقف عند حد الصواب ، أما علماء الصنعة فقد كسروا كل تلك القيود ، فأصبح الغموض شرطاً فى كل ما يكتبون ، وأصبحت الألفاظ تعنى أى شئ ، والرموز تغنى عن كل دقة فى التعبير ، وأصبح التأويل وسيلة للتخلص من كل تناقض ظاهر . بذلك ساروا فى طريق الغموض لا حبا فيه ، ولكن لأنه نتيجة حتمية للمأزق الذى وجدوا أنفسهم وأوجدوا علمهم فيه .

أما علم التحليل النفسى فيخيل إلىّ أنه يشبه أن يكون قد نشأ فى نفس الجو العقلى الذى نشأت فيه الكيمياء القديمة ، وذلك أن الطريقة التحليلية على النسق الذى رسمه ديكارت والتجربة وهما أساس العلوم الحديثة قد أصابا من النجاح ما جعلهما موضع الثقة التامة ، بل إن الحياة الحديثة وما فيها مما يهر الناس ترجع كلها إلى التطبيق العملى لهذه الطريقة فى البحث . حتى أصبحت عند الكثيرين الطريقة الوحيدة التى تستحق العناية . والناس لا يتصورون طريقة غيرها للوصول إلى الحقيقة ؛ وهم معذورون فى هذه الثقة العمياء . أنه بلغ من تقديسهم لها أن ظنوها قادرة على حل كل معضلة علمية من أى نوع كان ، وبذلك اليقين حاولوا تطبيقها على العلوم النفسية .

والواقع أن الظواهر النفسية لا تخضع لهذه الطريقة التحليلية بسهولة ، ولم نستطع حتى الآن أن نتبين كنه هذه الظواهر ، وما دمنا جاهلين ماهيتها فليس من الممكن تحليلها . ثم إن علم فسيولوجيا المخ البشرى لايدل على أنه من السهل تحليل الظواهر النفسية : مثال ذلك أن أجزاء كبيرة من المخ (الفص الجبهى)

الذى يظن العلماء أنه مكان التفكير والشخصية ، يمكن إزالتها دون أن يفقد الانسان شخصيته أو ذاكرته كلها أو بعضها ، وقد تتأثر الشخصية ببعض إصابات هذا الفص ، ولكنه أثر لا يدل على تخصص نوع من الخلايا بنوع معين من العمل . ولو ثبت فى الفص الجبهى أن كل جزء منه خاص بنوع من العمل ، كما هو الحال فى بعض أجزاء أخرى من المخ ، لأمكن تحليل عمليات النفس . بل هناك من الظواهر ما يدل قطعاً على أن المخ فى الجزء الخاص بالفكر البشرى لا يعمل بطريقة تحليلية ؛ فقد أجريت عمليات قطعت فيها الصلة التشريحية تماماً بين الجزء الجبهى من المخ كله وبين بقية المخ ، ولم يتغير تفكير الناس ولم يفقدوا ذاكرتهم أو عواطفهم كأن الصلة بين المخ الجبهى والجسم صلة لا علاقة لها بالاتصال المادى التشريحى ، ولعله اتصال كهربائى أو كيميائى أو — كما هو الأرجح — اتصال بطريقة لم تعلم بعد .

كل هذه الاعتبارات تجعل الباحث يتردد كثيراً فى تطبيق الطريقة التحليلية على الظواهر النفسية ، بل إن هذه الاعتبارات تجعل الانسان يكاد يجزم أن تطبيق هذه الطريقة على النفس سيؤدى إلى قيام علم لا أساس له ، كما قام علم الكيمياء كنتيجة لتطبيق طريقة الاستنتاج على الظواهر الطبيعية .

وعلم التحليل النفسى يعلق أهمية كبيرة على الأحلام ؛ فهى عند علمائه صورة لما يجرى فيما أسموه «تحت الوعى» ، وهذا أيضاً تعبير خاص بهم ، وهذه الصور التى يستخرجونها من الأحلام تدلهم على الظواهر النفسية العميقة . وخطأ هذا الفرض أنه لا دليل عليه . وذلك أن طبيعة الأحلام غير معروفة ، وطبيعة تكوينها غامضة جدا ، وقد تدل على ظواهر نفسية كما ثبت من نتائج التحليل النفسى فى حالات كثيرة ؛ على أن هذه الدلالة قد تكون نتيجة لعلاقة أخرى بين الأحلام والنفس لا يمكن تبينها الآن .

ولعل قائلا يقول إن من براهين صدق نظرية التحليل النفسى فى الأحلام ما وصلت إليه من النتائج . وهو فرض خطير جدا ، كما ظهر من تاريخ علم الكيمياء فقد وصل علماؤها قديماً إلى نتائج بتسخين الزئبق وخلطه بالمعادن لا شك فيها ، وظنوا أن وصولهم إلى هذه النتائج يثبت نظرية أن للزئبق روحا تطير بالحرارة فتصبح رماداً لا روح فيه ، وهى نظرية نعلم اليوم أنها خاطئة . فالقول بأن أى فرض يمكن أن يؤدى إلى نتائج صحيحة

فهو صحيح قول مردود عليه بتاريخ الكيمياء وهو البرهان الوحيد على أن نظرية التحليل النفسى فى الأحلام صحيحة .

ثم إن التحليل النفسى وقع فى خطأ آخر ؛ وذلك أن أساس البحث فيه أن هناك عقداً نفسية يجب علينا أن نبحث عنها إذا أردنا فهم بعض الظواهر النفسية ، وأن هذه العقد ليس عليها دليل ظاهر إلا ما تدل عليه الأحلام والخطرات العابرة التى تخطر للناس وهم يظنون أنها تخطر عفواً . ونظريتهم فى ذلك أن هناك علاقة سببية بين الأحلام والخطرات العابرة وبين العقد النفسية . فاذا أمكننا أن ندرس الأحلام استطعنا بوساطتها أن نتبين ماهية العقد النفسية . وهو فرض خاطى ؛ فقد يكون تماثل العقد النفسية والخطرات والأحلام تماثلا عارضاً وقد لا تكون العلاقة بينها علاقة السبب بالمسبب . مثل ذلك مثل الآلة التى تخرج ضوءاً وصوتاً يمكن اتخاذ أحدهما دليلا على الآخر دون أن يكون الضوء سبباً للصوت أو الصوت سبباً للضوء ، ووجود هذه العلاقة لا يدلنا على ماهية الضوء أو الصوت . كل هذه الاعتبارات تجعل الأسس التى يقوم عليها تفسير العقد بالأحلام على فرض نجاحه أحياناً أمراً بعيداً عن أن يكون هو الواقع فعلا .

الأمر الثانى الذى يتشابه فيه علم الكيمياء القديمة وعلم التحليل النفسى هو أن كلا منهما علم لا يصف الواقع و إنما يصوره . والفرق بين الحالتين كبير كبير جداً .

ولنضرب لذلك مثلا من علم الكيمياء : نحن نعلم أن الزئبق إذا ارتفعت حرارته إلى ٣٠٠ تبخر ، و إذا ارتفعت إلى أقل من ذلك اتحد مع الأكسوجين فكون رماداً هو أكسيد الزئبق ، وأن الغبار وهو اتحاد الكبريت والزئبق إذا عرض للحرارة انفصل كل منهما وأصبح الزئبق سائلا واتحد الكبريت . والأكسجين . هذا هو ما أسميه وصفاً للواقع . وهو حقيقة ، وكل هذه المواد الزئبق والكبريت والأكسجين لها وجود مستقل و يمكن إثبات الاتحاد والانفصال لأنه يحدث فعلا .

أما الكيمياء القديمة وقد شاهدت هذه الظواهر نفسها فقد وصفتها وصفاً تصويريا ، فقالوا : « أما الزئبق فلا تشد عليه النار فى أول التدبير فيفر ، أما النار الخفيفة فتجعله تزهق روحه فيستحيل رماداً ، وأن الغبار

إذا أحكمت تدبيره بالنار عادت روح الزئبق إليه » . الظواهر واحدة ، ولكن العلم الحق يصف ما يحدث ، والعلم الضال يصور ما يحدث تصويراً لا يعدو أن يكون خيالا .

وغاية التفكير فى الكيمياء القديمة هو تصور الفلوجستين ، وذلك أنه حين دلت التجارب على أن الزئبق يزيد بالوزن حين يتحول إلى رماد بالتسخين وأنه لا يفقد شيئاً ، رأوا الهروب من ذلك بفرض جديد وهو أن الزئبق يفقد الفلوجستين وهو شئ ذو وزن سلبى فاذا فقده ثقل وزنه . وهو مثل واضح من أمثلة التعسف الذى يؤدى إليه العلم التصورى بخلاف العلم الواقعى .

كذلك علم التحليل النفسى رأى الظواهر النفسية وهو لا يعلم كنهها ، ففرض وجود أشياء مثل الأيجو Ego والليبيدو Libido وصور الظواهر على أنه اصطدام بين هذه وتلك . وهو تصوير للواقع لا وصف له ، وهو أشبه الأشياء بفرض روح الزئبق لشرح تأكسده . وعلم التحليل النفسى ينقصه اكتشاف ما يقابل الأكسجين فى ظاهرة التأكسد؛ فليس الأيجو شيئاً معروفاً مستقلا له صفات نعرفه بها حين نلتقى به ولكنه مجرد فرض .

لا شك أن للنفس حياة خاصة ، وأن دراستها تحتاج إلى طريقة بحث جديدة . ولكن التحليل النفسى ليس الطريقة الجديدة المرجوة ، إنما هو تطبيق التفكير العصرى الحالى على ظواهر لا تصلح لتفسيرها .

هناك فرق كبير بين أن تصف الظاهرة وبين أن تصورها ، الأول حقيقة والثانى خيال . وقد تستعمل طريقة المشابهة لشرح بعض الظواهر الغريبة ، فتشبه بأخرى معروفة لتقربها إلى الأذهان ، على أن يظل مفهوماً أن الوصف تشبيه وليس الأمر كذلك فى هذين العلمين الضالين ؛ فهما علمان قائمان على تصوير الواقع لا على وصفه . ويمكن أن توضع للواقع صور كثيرة متنوعة ، ولكن الوصف الحقيقى لا يكون إلا واحداً .

وفى كلا العلمين غموض قد لا يشعر به المختصون ، ولكنه على الفكر العادى غموض على كل حال . والغموض صفة ملازمة لكل علم ضال . ولا أقصد بذلك الصعوبة ، فقد تكون نظرية النسبية صعبة الفهم ، ولكن ذلك يرجع إلى أن فهمها يحتاج إلى مقدمات رياضية عالية ، وهذا لا يسمى غموضاً ؛ وكذلك غموض الصوفية لا يدل على ضلالها لأنها ليست علماً . والعلم لا يكون غامضاً

إلا أن يكون به عيب من خطأ أو قصور . ويرجع غموض الكيمياء القديمة إلى قصور الصور التى تخيلها علماؤها عن أن تحيط بطبائع الأشياء كلها ، فاضطروا إلى جعل صورهم قابلة للتأويل وحشوها بالرموز وأصبحت الكلمات لا تعنى شيئاً معيناً بل قد تعنى كل شئ . ووصف الإكسير أوصافاً عدة منها ماهو مادى محض ومنها ماهو معنوى ، فقالوا إنه الماء الصافى وقالوا إنه الروح ، وإنه الصبغ وإنه الإدام ، ونسبوا إليه قوى ترفعه إلى ما يشبه قوة الخلق . كذلك فعل علماء تحليل النفس فى وصفهم الليبدو؛ فقد جعلوا منه مفتاح كل الحركات النفسية فهو المحرك للانسان ، وهو الذى يوجهه الوجهة التى يريدها ؛ وهو الذى يضل الناس أو يهديهم ، إما إلى النجاح و إما إلى المرض ، وهو أصل العقد النفسية ، إلى غير ذلك مما يكاد يجعله فى قوة الأكسير . فان أردت له تعريفاً جامعاً ووجوداً مستقلا لم تجد إلا فرضاً اخترع اختراعاً ليسهل فهم بعض الظواهر النفسية دون أن يكون على وجوده برهان .

و إذا استعرنا التعبير لمذهب الوجودية وجدنا أن عيب هذين العلمين ، هى أنهما فرضا خواص الأشياء قبل وجودها ، والعلم الصحيح يجب أن يثبت وجود الشئ قبل أن يتعمق بحث خواصه .

ولعلنا إذا وفقنا لمعرفة القيمة الحقيقية للتحليل النفسى أن نفتح الطريق للباحثين فى علم النفس ألا يركنوا إليه ، بل عليهم أن يلتمسوا طريقة جديدة فى البحث النفسى وفهماً جديداً لظواهرها ، كما حدث فى علم الكيمياء حين لم يتبين الحق فى هذا العلم إلا يوم اكتشفت طريقة التجربة والمنطق التحليلى . وعند ذلك تصبح العلوم النفسية علوماً حقة غير ضالة . ولاأظن أن التحليل النفسى سيستطيع أن يصل بنا يوماً إلى هذه الغاية .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب